سيّدنا

كنت أبحث حائراً بين شواهد القبور عن قبر سيْدنا. عندما وجدت نفسي أقف أمام الشاهدْ، تحركت شفتاي أتلو ما تيسر من القرآن.. انسابت إلي ذاكرتي صورته وجلسته التى لم تتغير أبدا وجهه المملوء هدوءا وبشاشة زاد عليه تشربه ببياض ممزوج بالحمرة و طربوشه الأحمر اللون .. منشته التى كان يمسكها بأطراف أصابعه اليمنى كان يغيب ويهش عن وجههه الذباب المتطفل وربما الملل عن نفسه إذا طال مكوثه بالكتاب. كنا نجلس على هذه الحصر المصنوعة من الخوص والتى كانت تؤذى أجسامنا الغضة، وقد أسندنا ظهورنا لحوائط قديمة مبنية بالطوب اللبن بينما تمسك أيدينا الصغيرة بالكراسات والمصاحف.

ومن داخل المكتب كانت أصواتنا والتى لم يتجاوز عمرها بضع سنين تخرج مدوية بآيات القرآن. لطالما تخيلت بأنها لاتذهب بعيدا.. بل تلف القرية وتحفظها من كل شريمكن أن يلم بها. كان جسمى يتحرك حركة شبه منتظمة وأنا أقرأ بمصحفى بينما عيناى تختلسان النظر الى سيدنا ثم الى العصا بيده. لا بأس . هو الآن منهمك فى إفطاره الذى يأتيه كل صباح. عادة مايكون

الشاى وقد أضيف اليه اللبن وعدة « فصوص من العيش « كانت يد سيدنا مشغولة بتوصيلها بعد غمسها بالشاى الى فمه .

كنت أنتهز الفرصة أنا وأتبادل اللعب مع رفقائى .. لكن سرعان ما يأتى صوته محذرا

ملوحا بعصاه والتى يعرفها رأسى جيدا :

« هاااه» كفاية لعب ياولدى احفظلك آيتين .

فيعود جسمى ينتظم حركته وتندس عيناى فى مصحفى ويعلوا صوتى بالقراءة فينخفض رويدا رويدا غضب سيدنا علي أتذكر هذا اليوم حين قلت له :

إنى مصاب بألم فى رأسى ياسيدنا ولا أستطيع الحفظ .

فى حنو وضع يده اليمنى على رأسي وأخذ يتلوا المعوذتين وبعض الآيات وبعد فراغه سألني كيف أنت الآن :

بخير يا سيدنا .

إذن اذهب وأكمل .

استطعت أن أتنقل بين صفوف الدروس على السبورة الى أن جلست أمام سيدنا وقد حفظت «أجزاء من القرآن «.

اقتربت خطوات من قبره غلبتني دموعى فتساقطت على الرمال تحتي جلست واضعا كلتا يداى على رأسى ووجدتني أهمس :

- سيدنا كيف أنت ؟

-غيبتك أثرت فينا وشوقى اليك زاد.

انبعث بداخلي صوته الجاد

- إنه المقدر والمكتوب ياولدى .

لما لاتعود إلينا يا سيدنا نحن فى أشد الحاجة إليك .. والكتاب

خالى بدونك يعلوه التراب غارق فى الصمت لم تعد ألآيات تلف القرية لتحفظها ؟

- ياولدى المشيئة لا تسمح.

- اتلوا ما حفظت من القرآن.

انتظم جسمى الحركة وانا أسمع سيدنا.عندما انتهيت جائني صوته

ـ أحسنت الآن تمر على طريق من نور ياولدى ..

وأخذ صدى صوته يبتعد ... ويبتعد

انتصبت واقفا، مسحت بكفي دموعي.

وبخطوات مثقلة غادرت الشمس بأشعتها الذهبية تودّع للغروب.